محمد المرابط

ترجمها وقدم
لها محمد رجاء

مقهى الشاطئ

تقديم:

ولد محمد المرابط في مدينة طنجة سنة ١٩٣٦. ولم يتلق أي تعليم في المدارس سوى لبضعة شهور من حياته. وعاش بعد ذلك حياة متسكعة ومارس العديد من المهن الصغيرة (حارس ـ طباخ ـ سائق تاكسي...)

وعندما التقى بالكاتب الأمريكي Paul Bowls، نزيل طنجة، سنة ١٩٦٤ اكتشف فيه هذا الأخير مواهبه الحكائية ومخزونه من المرويات الشعبية.

وهكذا اقترح عليه فوراً أن يروي عليه حكايات ينقلها إلى اللغة الإنجليزية ويعمل على نشرها في المجلات والدوريات البريطانية والأمريكية وذلك نظير إكرامياتٍ صغيرة يتلقاها محمد المرابط من طرف «پول بولز».

ولم يكن أحدٌ منهما يتوقع أن تُسفر هذه التجربة البسيطة عن ميلاد راوٍ شعبي كبير ترحب دور النشر بأعماله ويتهافت المترجمون على نقله إلى لغتهم (الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الرومانية، اليونانية، الهولاندية...)

وبالرغم من أن محمد المرابط يتوفر الآن على أحد عشر كتاباً موزعة بين الرواية والقصة القصيرة والسيرة الأدبية، فإنَّه يبقى مجهولاً من لدن القارئ العربي والمغربي، والأثر الوحيد الذي يوجد له باللغة العربية هو الملف الذي أعدته مجلة آفاق لاتحاد كتّاب المغرب تحت عنوان «مدخل للسرد الشفوي بالمغرب» والذي يوجد به تعريف بالكاتب وحوار مطول معه ونماذج من نصوصه المختارة مترجمة إلى العربية.

وكمحاولة لتقريب القارئ العربي من أجواء هذا الكاتب الشعبي نقترح هنا ترجمةً لبعض الفصول من روايته المسماة: «مقهى الشاطئ» التي صدرت بالولايات المتحدة سنة ١٩٧٦ وترجمت إلى الفرنسية سنة ١٩٨٩. ولعل هذه الصفحات تعطي فكرةً عن نمط جديد للكتابة أساسها السرد الشفوي وعمل الذاكرة في غياب أية ثقافة عالمة من أي نوع كان.

ـ كان الفصل صيفاً والشمس محرقة في الشاطئ وكنا قد انتهينا من تناول الغداء. وبينما كان الآخرون مستغرقين في قيلولتهم قمت أنا وسرْت على الرمال، عابراً الشاطئ، حتى نهايته التي كانت توجد بها أجراف من صخور موغلة في اتجاه المحيط.

كانت الرياح تهب من البر فتحمل معها رمال الشاطئ وتطوح بها إلى الماء. تسلقت الصخور وجست أنحاءها: كان هناك، في الجهة الأخرى للمضيق شاطئ أكبر بكثير من الشاطئ الأول. وتذكرت أنني جئت هنا في وقت لم يكن فيه إلا هذا الساحل المديد بخلائه الموحش وأمواجه المتكسرة على الشاطئ. أما الآن فإني أرى منزلاً خشبياً صغيراً نصب في مكان يشرف على الشاطئ تماماً. اجتزت الرمال وحمت حول المرتفعات المكسوة بنباتات الصبار حتى وصلت إلى ذلك المنزل وكان يقف ببابه رجل ذو لحية سوداء يعتمر عمامة صفراء وينتعل خفاً أصفر كذلك:

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام.

ـ ما هذا المكان؟ هل هو مقهى؟

أجاب الرجل بما يفيد الإثبات.

ألقيت نظرة إلى الداخل فأبصرت بضعة كراسي وطاولة صغيرة ثم جلست على كيسٍ يوجد عند باب المقهى.

ـ هل يمكنك أن تهيئ لي كأس شاي؟

وبينما كان الرجل منشغلاً بتهيئة ما طلبت صحت به:

ـ اصنع كأساً لك أنت أيضاً!

جاء بالشاي وجلس على كيسٍ آخر بجواري. ناولته السبسي لكي

يدخن. وبعد فراغه من ذلك، قدَّمْت إليه النبولة حتى يملأ الشقف مرة أخرى.

ـ ما اسمك؟

ـ فؤاد. وأنت؟

ـ ادريس.

نظر إلي فؤاد مَليّاً فقلت له:

ـ هل تسكن هنا؟

ـ لا! إني أعيش في الدوار، هناك فوق الجبل.

ـ هل أنت متزوج؟

ـ بل أب لأطفال عديدين.

ـ حسناً فعلت، وكم ثمن هذا الشاي؟

قال لي الثمن ونَقَدْته ضعف ما طلب. لقد كنت متيقناً أنني لو سألته عمّاإذا كان لديه كيفه الخاص لأجابني بالنفي. طرحت عليه السؤال فأخبرني أن لا كيف لديه فقدمت له منه شيئاً ووضعته له في قطعة من الورق. ثم قلت له: سأعود لأراك قريباً إن شاء الله.

وهل بإمكانك عندما تعود أن تأتيني بقليل من النعناع؟

بينما كنت في طريقي إلى الشاطئ الآخر طفقت أفكر في طلب هذا الرجل وقلت في نفسي: «من يمكن أن يشبه رجلاً لا يخجل أن يطلب من غريب أن يشتري له النعناع؟»

الفصل الثاني

عندما رجعت إلى الشاطئ على متن السيارة كنت حريصاً على أن آتي بالنعناع والكيف لصاحب المقهى. تَبَسَّم فرحاً حين كشفت له عن هداياي إلا أنه لم يقل شيئاً، ورغم ذلك أحسست به مبتهجاً.

جلست في الداخل على أحد الكراسي، دردشت معه قليلاً بينما كان هو منهمكاً في تهيئة الشاي. قدَّمه إلينا وجلس.

أمعنت النظر في الرجل طويلاً ونحن نشرب الشاي وندخن الكيف: لا يُستَبْعد أن أحب هذا الرجل، قلت في نفسي، ولكن شيئاً ما في عينيه يمنعني من ذلك فقررتُ أن أتريث بعض الوقت حتى أزداد معرفةً به.

ـ لديك مكان جميل هنا! قلت له.

ـ هذا صحيح! أجابني.

ـ منظر رائع في معزل عن كل شيء.

نعم، إنه جميل جداً ولكن الذي يحيطون به أناسٌ لا أفهم لماذا يعتقدون أن بإمكانهم أن يحصلوا على كل ما يريدون مقابل لا شيء.

إنهم طفيليات، أجبته!

ـ ربما يكون ذلك صحيحاً، غير أن هذا النوع من الناس يوجدون في كل مكان وليس هنا فحسب.

ـ إنهم لا يوجدون في «أوروبا» على كل حال.

ثم استطرد معلناً أن النصارى ليسوا كذلك وأنهم أناس معتبرون.

ـ لماذا يخيل إليك أنهم هم الأحسن؟

ظل فؤاد يحلق برهَةً ثم أضاف:

ـ إنهم ينفقون المال! فالنصراني الذي يأتي إلى هنا يترك سيارته في قمة الجبل وينزل إلى الشاطئ، وقبل أن يركب سيارته في طريق العودة يكون قد نفعني ما يقارب ثلاثمئة فرنك.

ـ نعم، نعم، إني أفهم قصدك. النصارى لديهم الكثير من المال ولذلك تجاهر بالقول إنهم أفضل من المسلمين.

دمدم «فؤاد» غاضباً:

ـ المسلمون! إنهم يأتون هنا سكارى مُعربدين أو يجيئون بالخمور ويشربونها فيتسببون في المشاكل.

ـ إنك أنت المخطئ!

ـ كيف ذلك؟

ـ عليك ألا تسمح لهم بالدخول إلى مقهاك. إن لك الحق فقط في بيع الشاي والقهوة والكوكاكولا، وإذا عرف الدركيون أن بعضهم يشربون الخمور هنا فسيعمدون إلى إغلاق محلك ويحكمون عليك بغرامة وينتهون بالإلقاء بك في السجن. صحيح أم غير صحيح؟!

ـ أعرف ذلك جيداً، قال فؤاد، ثم رفع يديه مظللاً حاجبيه ليدقق النظر وقال، وهو ينظر إلى البعيد في اتجاه الطريق:

ـ هل ترى الرجل الذي يمشي بمحاذاة الطريق هناك، في القمة؟

ـ من يكون؟

ـ إنه يسكن في «دوار البالي». هل تذكر الرجل الصغير الذي يأتي من المدينة ليصطاد السمك من حين الآخر. هل يكون الرجل الذي يدعى «خورتي»؟

ـ أعرفه.

ـ «خورتي» يأتي دائماً إلى هنا ومعه قفة مليئة بالحشيشة، يهيئها هو بنفسه: خليط من الكيف ودقيق القمح واللوز المهروس. إنها حشيشة من النوع الجيد: يجول بها في المداشر، وإذا أقيم حفل في مكان ما فإنه يقصِده ليعرض حشيشته للبيع. وذات مرة قام ذلك الرجل الذي تراه يمشي بمحاذاة الطريق، هناك في أعلى الجبل، بشراء قفة كاملة من الحشيش، من «خورتي»، وأتى عليها دفعةً واحدةً فبلغ به الانتشاء أن ذهب إلى بيتهم حيث كان أبوه في رفقة أصدقاءٍ له وأخذ بتلابيب جلبابه بلا حشمة ولا حياء وبدأ يصيح في وجه أبيه بغير توقف:

ـ أموت، أموت إني أموت!! إنهض وخذني إلى المنزل حتى أسلم الروح وأنا على ملة الإسلام.

نهض الأصدقاء فخلّصوا الأب من خناق الإبن وطوحوا به إلى الخارج، لكن سرعان ما اهتدى إلى منزل آخر يقام فيه زفاف. كنت حاضراً عندما دخل. بعد ذلك بقليل بدأ المطر يسقط. أذكر أنه اتجه إليّ وقال:

ـ أنا منصرف إلى حال سبيلي ولكني سأعود بسرعة.

خرج وأزال عنه جلبابه عندما رأى تساقط الأمطار. اقترب من بركة مليئة بالماء وبدأ يتدحرج ويتقلب في الوحل. كان المطر ينزل مدراراً حين خرج أحد الحاضرين ثم عاد إلى المنزل يجري وهو يقول:

- تعالوا، انظروا!

وجدناه منبطحاً جانب البركة ملطخاً بالوحل. انتشلناه وأدخلناه وبعد ذلك حملناه إلى منزله ومنذ تلك الليلة أصيب بمرض في رأسه.

كنت أنظر إلى فؤاد وأستمع إليه بإصغاء فأضاف يقول:

- لكن لم يحدث هذا بسبب ما تناوله، ليس بسبب الحشيشة وقع له ذلك. فمخه كان مريضاً منذ البداية وأصل البلية كلها من العائلة. إذ ها هو الآن يعامَل من طرف ولد من صلبه كما كان هو يعامل أباه. ووقائع من هذا القبيل نشاهدها باستمرار في أيامنا هذه. لم تعد الأشياء كما كانت من قبل. وبينما كُنا جالسين نتحادث، دخل علينا ثلاثة شبان إلى المقهى وبعد ما ألقوا السلام على «فؤاد» التفت إليّ وقال:

- هؤلاء الأولاد جاؤوا من الدوار. هذا «حميد»، «مصطفى»، «عبد السلام».

قلت لهم اسمي ثم تصافحنا بحرارة. جلسوا وطلبت من فؤاد أن يقدم إليهم شاياً. وبينما نحن نشرب أعطيتهم كل ما يمكن أن يدخنوه من «كيف» ثم سألتهم عمّا يفعلون فأجابني مصطفى:

- لا شغل لنا، نكتفي فقط ببيع بعض الأشياء للسياحَ الذين يأتون لزيارتنا. فهم يتوقفون أحياناً في مضيق «سبارتيل» «spartel» قبل أن يلتحقوا بمغارات هرقل.

- هل الأعمال تسير بخير؟

- عندما يكون هنا ما يكفي من النصارى فإن الأمور قد تَتَيَسّر. أما في الخريف والأمطار بهذه الغزارة فالأشياء ليست بسهلة المنال. لذلك نكتفي بالبقاء في المنزل أو نتلاقى في مقهى صغير في الدوار.

فاجأني فسألته:

- وهل يوجد مقهىً هناك في الأعلى؟

- نعم، يوجد! وهو في ملكية شخص يُدعى عبد اللطيف.

- كيف هو؟ هل هو مكان جميل؟

- نبقى مجتمعين نغني ونعزف الموسيقى.

نَدَّت من فؤاد ضحكة فيها إهانة وانتقاص وقال:

- ما نوع الموسيقى التي بإمكانكم أن تعزفوها!

- كفاك يا فؤاد! قلت معرّضاً، حتى ولو كانت موسيقاهم لم تصل بعد إلى درجة الكمال فإنها ستتحسن. إنهم شباب.

- شباب!، صرخ فؤاد معارضاً. إنها كلمة لم تعد تعني أي شيءٍ في أيامنا هذه. الأغاني الحقيقية هي التي كانت لدينا، أغاني القرون السالفة. أيامذاك كانت موسيقى جميلة.

نظرت إلى الأولاد الثلاثة نظرةً هازئة بضحكة فؤاد المُهينة.

الفصل الثالث

فصل الصيف يمر.. في يوم من الأيام، ذهبت إلى السوق لقضاء بعض المآرب استعداداً لرحلة. وكنت قد وَعَدْت «البتول» أن آخذها معي إلى البحر.. انتظرتني في منزلها ببعض أدوات المطبخ. مررنا بـ«سيدي عمار» الموجود في قمة الجبل لنأخذ من مقهىً هناك صديقين، أحدهما مزود بشبكة صغيرة للصيد. وبينما نحن نازلون من الجبل في اتجاه المضيق رأينا أن المقهى قريب جداً كأنه أسفل أقدامنا لدرجة أن «البتول» قالت بأنها ترى «فؤاد» واقفاً أمام منزله الخشبي ولكنه أبعد بكثير من أن تميزه.

بعد دقائق دخلنا إلى المقهى وجلسنا.

طلبت شاياً وأخرج كلٌّ سَبَيستيه فبدأنا نتجاذب أطراف الحديث. أثناءها باغتني فؤاد بسؤال:

- ادريس! بماذا تشتغل؟

فهمت على التّو أن أحداً قدْ حدّثه عني فانفجرت ضاحكاً.

- بكل الأشغال ومن جميع الأنواع!

- مثلاً؟

- أوه! أذهب في بعض الأحيان إلى الموانئ الصغيرة، القصر الصغير مثلاً، أشتري منها سمكاً وأبيعه في طنجة.. أو أشتري أثاثاً ممن ينوي مغادرة المدينة ثم أبيعه في ما بعد. وإذا لم تكن لدي نقود لأؤدي السلعة بنفسي أتصل بأحد الأصدقاء ممن يملكون متجراً فيشتري ويعطيني أجرة. إنني أتدبّر أمري الحمد لله.

حرك فؤاد رأسه متأملاً ثم قال:

- لديك طريقة غريبة في تصور الأشياء.

- وما الغريب في هذا الأمر؟

- ألا ترغب في أن تربح المال؟!

- يجب أن نقنع بما وجدناه من عمل. البستنة أو تنظيف المجاري أو الحرب ضد بلد آخر... ليس هنا فرق!

كانت الحرارة مفرطة داخل المقهى والريح تهب في الخارج. نهضت لأخرج فتبعتني «البتول». الرمل شديد الحرارة في جنبات المقهى لدرجة أننا جرينا إلى جانب البحر حيث الرطوبة. بدأت أتذكر.

الرجال الذين أعرفهم والذين يسكنون قرب «دوار البالي» حكوا على مسمعي حكايات كثيرة وطريفة عن فؤاد. وما أثار اهتمامي أكثر أنه كان في صغره قليل الأدب كثير السفالة مع أبيه. كما قيل لي بأن أبناءه الآن يعاملونه هو بدوره المعاملة نفسها. ففكرت وأنا أسترجع مشهد الرجل الذي كان يمشي بمحاذاة الطريق والذي كان يريني إياه فؤاد، وكل ما كان يحكيه لي عن الآخرين إنما كان يحكيه عن نفسه ولا أحد سواه. هكذا ازداد فضولي تجاه هذا الرجل فالتفتت إليّ «البتول» وقلت لها:

- أريد منك خدمة.

- خدمة؟

- أريد أن أكتشف شيئاً ولا بد من مساعدتك. قد يكون الأمر تافهاً ولكني ألح على معرفته. هل تقبلين البقاء في المقهى مع فؤاد عندما نذهب نحن إلى الصيد؟ هذا طلبي إليك. حاولي أن تدفعيه إلى الكلام. اكْشفي عن خباياه.

كانت«البتول» فتاة لامعة حقاً.

- موافقة يا «ادريس». سأفعل ذلك من أجلك!

صعدت «البتول» إلى المقهى حيث انفردت بفؤاد وذهبت أنا والأصدقاء إلى الشاطئ، فأدلينا الشبكة من أعلى قمة صخرة، غير بعيد من المقهى.

الشمس محرقة والريح عاتية. لم «يمر إلا لحظات حتى كان عندنا من السمك ما يكفي لملءِ ثلاث قفف، ثم قفلنا راجعين إلى المقهى.

خرج «فؤاد» ونظر طويلاً إلى القفف. كانت لديه حَوضية من البلاستيك ملأتها له بالأسماك. ورغم شعوري بالجوع قررت ألا أهتِمَّ أي شيءٍ داخل المقهى. وكم كنت مستعجلاً معرفة الجديد عن فؤاد لأنني قرأت في عيني «البتول» شيئاً تريد قوله.

هكذا أديت «لفؤاد» ثمن الشاي وودعته بعد أن وضعت في السيارة ما تبقى من السمك.

تركت مرافقيَّ في السوق وتركت معهما السمك ثم نزلت مع البتول قاصدين شاطئ «سيدي كنشوش» مكان الرحلة. ونحن في طريقنا إلى هنا التفتُ إلى «البتول» فقلت لها:

-ـ وأخيراً ما الجديد في الأمر؟

بدأت تضحك وتحكي ما دار بينها وبين فؤاد.

في البداية طلبت منه سيجارة. وبما أن فؤاد لا يدخن إلا «كازاسپور» والكيف فقد قام بشراء علبة غير كاملة من سجائر «ماركيز» وقدّم إليها واحدة. أما هي فقد طلبت إليه قارورة «كوكاكولا». أشعلت السيجارة وقالت:

ـ فؤاد! إنك تعرف «ادريس» معرفة جيدة.

أجابها فؤاد:

ـ أعرفه، نعم. ولكني في الواقع لا أعرف عنه شيئاً. كل ما أعرفه عنه هو أنه لا يتغير أبداً، إنه دائم الابتسام وموفور «الكيف». ثم إنه يحب أن يتكلم.

هكذا تفاهم «فؤاد» و«البتول».

ـ أنت على صواب!، قالت، إنه كثير الحركة. لا يهدأ أبداً وهذا ما أطيقه فيه. فهو يظن دائماً أن هناك فيلماً يدور حوله وهو البطل. لقد قضى كل حياته مع النصارى، فمن يستطيع أن يعرف ما يدور في رأسه؟

ـ نعم! قالت البتول مزايدة، معه لا أعرف رأسي من رجلي.

تمَطّى إليها «فؤاد» بعض الشيء وقال لها في همس:

ـ «ادريس» نذل وخسيس!! لم أثق به أبداً، لهذا لا أستطيع أن أقول بأنني حقاً أحبه. نعم، أعرف أنه حنون وعطوف ولكن مهما كانت ألاعيبه فباستطاعتي أن أؤكد لكِ أنيّ لن أغتر بكلامه المعسول، أبداً. لقد تمرَّستُ بما فيه الكفاية بأحاييل من هذا القبيل.

عقّبت «البتول» في توسل وضراعة:

ـ لقد أراد مني أن أرافقه إلى الشاطئ لأراه وهو يصطاد مع الآخرين.

لقد ضقت ذرعاً بحديثه. خرجت معه مراتٍ عديدة ولم يسبق لي أن قضيت معه ولو لحظة سعادة واحدة.

أجابها «فؤاد» حاسماً في الأمر:

ـ لا تخرجي معه مرةً أخرى.

ـ بالفعل، قالت «البتول» يبدو أن عليَّ أن أضع حدّاً لهذه العلاقة.

ابتهج فؤاد لكل ما قالته «البتول» عن «إدريس» وتمازح بعض الوقت ثم قال:

ـ هيا، سيرافقك «ادريس» إلى منزلك بعد قليل، أليس كذلك؟ يبدو أنك تحبين هذا المكان الذي نحن فيه الآن؟

أجابته «البتول»:

ـ بإمكاني أن أقضي أياماً وليالي هنا.

ـ ولماذا إذن تمنعين نفسك؟

بعد ذلك اقترح عليها أن تعود إلى المقهى على متن سيارة أجرة وذلك بعد أن يوصلها إلى بيتها.

سَأُؤَدي ثمن التاكسي، قال «فؤاد»، وتقضين الليلة هنا. سنطلب من السائق أن يعود في صبيحة الغد ليحملك إلى المدينة.

ولما سألتها عن موقفها من اقتراح فؤاد صاحت في وجهي مزمجرة:

ـ هل تظن أن بإمكاني أن أصاحب مثل هذا الرجل، أن أزدرد الفلفل أهون علي من أن أدع هذا الرجل يقربني! لقد أجبته بأن الأمر يحتاج مني إلى تفكير.

حينذاك صعدت أنت من الشاطئ. وفي جميع الأحوال فقد تأكّد لي أن فؤاد لا يحبك. إن هذا الرجل ليس بصديق لك. بل هو لا يرغب في صداقتك.

ـ أعرف ذلك، قال ادريس، يرغب فقط بما في وسعي أن أقدم إليه. لقد باع نفسه بثمن بخس. ربطة نعناع كافية لشرائه.

ترجمها عن الفرنسية محمد رجاء

نهر الحيوان

رجاء عالم

دار الآداب